خصائصها المجردة وفي ماهيتها الصرف مهما كانت الملابسات الطارئة التي تحفّ بها أو الأعراض التي تتنكّر بها.

ونظن أن تمام حسان رغم ما نوّهنا به في شأنه لم يبلغ هذه المرتبة ولم يتمثل جدّة اللسانيات تمثلا شاملا واضحا بحيث يعيّن الفرضيات الملائمة لنقد التراث النحوي العربي. بل لعلنا لا نجانب الصواب إن زعمنا أن اللسانيات لم تكن المرجع النظري المؤثر ولا الفاعل. إن المرجع الفاعل في تفكير تمام حسان عند نقده للتراث، هو صاحب إحياء النحو ومن تبعه واقتدى به فكوّنوا اتجاها ضاغطا على كل متناول للتراث. ورغم ما قد يبدو في قولنا من غرابة فتمام حسان كان مواصلة لمدرسة التيسير وتثبيتا لغاياتها أكثر مما كان قطعا معها وانتسابا للسانيات عند نقد التراث النحوي، وإن كان استعماله للسانيات في صياغة هذه الأهداف أو صياغة بعض مآخذ الميسّرين يوهم بخلاف ذلك.

يدلّ على ذلك أنّه تبنّى في قراءته للتراث الدواعي الاجتماعية والحضارية التي حرّكت أصحاب التيسير وارتضى الأهداف التي نشدوها. واعتمد الفرضيات التي عابوا بها النحو القديم. ولما كان تعليم العربية لأهميته في مشروع النهضة الداعي الاجتماعي الرئيسي في إعادة النظر في التراث عند إبراهيم مصطفى وأصحابه كانت قضايا تدريس العربيّة وشكوى الناس من نحوها الهاجس الدافع إلى تأليف «مناهج البحث في اللغة» و«اللغة بين المعيارية و الوصفية» و«اللغة العربية معناها ومبناها» وقد صرّح بذلك في مقدمات كتبه في لفظ يذكرك بمقدمة إحياء النحو [1]. وصار لذلك هدفه كهدفهم تيسير النحو العربي وتخليصه مما عقّده وشعّب قضاياه. وإذ اقتنع الجميع بأن نظام العوامل هو المسؤول عن ذلك قدّم نظرية يستعيض بها عن نظام العوامل كما سبق أن حاول ذلك قبله مصلحون للنحو. ولما كانت المحاولات الأولى لتيسير النحو وتطويعه لمقتضيات التعليم الذي أحدثته النهضة تقرن بين مسائل النحو والصرف و البلاغة و الأدب وتجمع بينها في التدريس لتمكين طلابها من إتقان العربية ولما كان إبراهيم مصطفى يدعو إلى إلحاق دراسة الأساليب بالنحو رأينا تمام حسان أيضا يقتفي واعيا آثار السابقين ويدعو إلى

1 مناهج البحث في اللغة ص 12 واللغة بين المعيارية والوصفية ص 3.